

# أكذوبة إيران



د. أسية البوعلي \*



صورة جامعية للوفد المشارك في المؤتمر العالمي الأول للنخب العلمية النسوية في العالم الإسلامي في طهران

■ مضى وقت طويل منذ آخر مقال نشرته في جريدة "الوطن" تحديداً في ١٢ مايو ٢٠٠٨م، ولما كانت الكتابة حالة ودافعاً في المقام الأول، فإن الجواب الذي أبوح به حين الاستفسار عن غياب مقالاتي هو أنه: لا يوجد ما يحرك قلبي. أما اليوم فإنني أفيض برغبة الكتابة، كتابة تدفعني إليها الدهشة والرؤية معاً: رؤية العين التي ينقشع معها الضباب ويزيل تجاهها الشك. ويقولون إن في السفر سبع فوائد لا شك أن المقولة تنف على حقيقة نسبية، وإن كانت رحلاتي الكثيرة عبر بلاد العالم أفقدتني دهشة الاستكشاف ومتعة العد، ومن ثم لم أعد أعرف ما إذا بلغت فوائد سفري، في بقعة ما، السبعة ومن ثم فهي كاملة وهو المقصود من رمزية العدد سبعة، أم هي دون ذلك.

تلقيت دعوة رسمية للمشاركة في المؤتمر العالمي الأول للنخب العلمية النسوية في العالم الإسلامي، والمؤتمر الذي أقيم في طهران بجمهورية إيران الإسلامية في الفترة من ٢٧-٢٨ يناير ٢٠١٠م، كان بحث إيران خاصة في ظل صورة البث لقمع ووزارة العلوم الإيرانية، فضلاً عن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو).

ويهدد المناسبة العالمية البناء، حرصت كل الحرص على نقل صورة أمانة وموضوعية عن وضع المرأة في السلطنة، بعيدة كل البعد عن مسرحة الحدث النسوي، وذلك من خلال بحثي المعنون "النخب النسوية العثمانية بين تحقيق الذات وتطور المستقبل"، لن أفيض في تفاصيل البحث لأنه سينشر في يوم ما مع بقية البحوث المقدمة للمؤتمر. إن رحلتي إلى إيران التي بلغت الأربعة أيام بين ضجيج طهران، وروعة أصفهان أهدتها رحلة عمري، بل رحلة الاكتمال للفوائد السبع، فايران التي لم تمر على خاطري ومن ثم لم أفكر قط في زيارتها، خاصة في ظل صورة البث لقمع المرأة والرجوع بها إلى عصر الحريم، اعتماداً على الإعلام الغربي والأميركي، فضلاً عن ربط هذه الصورة بالاسلام وبالتالي بالارهاب على مدار الثلاثة عقود الماضية؛ تحديداً بعد الثورة الإسلامية، وتحول إيران إلى جمهورية إسلامية- كل هذه الأمور لها صداها وتأثيرها على ومن المؤكد على الآخرين، إلى الحد الذي يبلغ معه حين مقابلة أي شخص قضى في إيران عدة سنوات ننظر إليه، بشكل لا إرادي، نظرة ربية وحيطية.

وعليه أثمر أن تستمر علاقتي بإيران علاقة الباحث أوالقارئ الحريص على جمع وقراءة كل ما يصل إلى يده من تراجم الأدب الفارسي بمختلف أجناسه، فكان- وما زال - خير معين لي في ذلك الأعداد المختلفة من مجلة "شيراز" الفصلية الصادرة عن مركز الفكر والفن الاسلامي بطهران، والمحتوية على نماذج أدبية فارسية مترجمة إلى اللغة العربية، كالقصص القصيرة والشعر وكذا الدراسات النقدية. هذا فضلاً عن اطلاعي على نماذج من هذا الأدب من خلال الترجمة القيمة في كتاب "نافذة على القصة القصيرة الفارسية" الصادر عن جامعة السلطان قابوس، للصيدق الزميل د.إحسان بن صادق اللواتي. أضف إلى ذلك إعجابي ببلاغة الخطاب لنصوص الطبعات الصادرة من الجهات المعنية بإيران لخطبة "الغدیر" أو "الوداع" لختام الانبياء والمرسلين محمد - صلى الله عليه وسلم - والتي أهدتها من وجهة نظري-.

لا بد من الاعتراف أن عشقي للمنجز الفارسي لا يقتصر على الأدب فحسب، بل يمتد ويمتعة بالغة للأثر التاريخي والفنني، سواء فيما يتعلق بعمارة المساجد والجسور والقصور أو فيما يتعلق بالبنية الحضرية والفنية المنعكسة من خلال أنماط صناعات السجاد، ودقة المنمنمات، ورعة أعمال القيشاني، والصناعات الحرفية أو فيما يتعلق بالسينما الإيرانية.

هبط بي الطائرة في مطار طهران في الثالثة والرابع من فجر يوم الأربعاء ٢٧ يناير، بعد رحلة ليلية طويلة ومرهقة من عدم الإغفاء. كان بالي في غاية الانشغال؛ على أن أستجمع كل قواي الجسدية والعقلية، فموعد إلقاء ورقتي البحثية حسب البرنامج في الثانية والرابع من ظهر اليوم ذاته، ذكرني الموعد بمواعيد محاضرات الظهيرة حين كنت أعمل بجامعة السلطان قابوس، حيث شعوري بالإرهاق والنعاس بعد وجبة غداء ويمجرد دخولي قاعة المحاضرة أستيقظ تماماً، ويعود الذهن

إلى قمة انتعاشه وكأنه في اللحظات الأولى من الصباح، من هنا تأكد لدي أن هناك تشابها ما بين مهنة التدريس والتمثيل، فالممثل ينفصل عن شخصيته مؤقتاً، حين يطلب منه أداء دور ما، والأستاذ الجامعي ينفصل عن كافة حواسه بشكل لا إرادي، باستثناء التركيز، حين يقدم على التدريس. وعليه لم يؤرقني الموعد فقد اعتدت على ذلك، كما لم تؤرقني معرفتي أن برنامج المؤتمر سيبدأ في الثامنة من صباح اليوم ذاته ولن ينتهي سوى على مشارف منتصف الليل، ولم يؤرقني صقيع الطقس الذي بلغ في برودته الثلاث درجات تحت الصفر رغم الرعشة والارتجاج اللذين كنت أشعر بهما.

كانت صالة إكمال إجراءات الوصول خالية نسبياً وضابط الجوازات مصر على تقليب جواز سفري بين يديه المرة تلو الأخرى، ثم تمرير الجواز بكل صفحاته على جهاز إلكتروني مع مسح متكرر لاملح وجهي بنظراته الناقبة والدقيقة، استمر الموقف عدة دقائق وأنا أتأجج ذاتي: "ما الذي يدعوه إلى كل هذه الحيلة فأنا واثقة أن جواز سفري صدر من جهة رسمية في بلدي وأنتي لم أفقد هذا الجواز قط، وتأشيرة دخول إيران بجواز سفري واضحة أنها تأشيرة مهمة صادرة من السفارة الإيرانية بالسلطنة، ومن ثم لا مجال لشبه التزوير". ورغم أنني لا أرتدي الحجاب بموطني فإنني التزمت بلبسه احتراماً للقوانين في إيران نحو فرض الحجاب على المرأة بوصفه زياً إسلامياً.

تبادر إلى ذهني مباشرة إحساس الحيلة الذي يتأبني في موطني تجاه القادم من إيران فتساءلت: هل القلوب عند بعضها!! وبين محاولة إيجادي لأسباب هذه الوقفة الغريبة قلت لذاتي "ساعطي الضابط عدة ثوان وإن لم يسمح لي بالمرور سأبدأ أنا في سؤاله عن أسباب هذا التعطيل" في تلك اللحظة المفجعة بالبرد والإرهاق كنت أسترجع الإعلام الغربي والأميركي عن أوضاع المرأة بإيران قائلة لذاتي "ما الذي أتى بي إلى هذه البلدة التي تذل النساء، أنا أعشق الحضارة الفارسية من على بعد وعلى الصعيد النظري، ما الذي دفعني للاقترب منهم، وأنا سليلة النهج الحكيم بالسلطنة الذي يسعى نحو تمكين المرأة والرفع بها قدماً. إن مكائتي الأدبية لن تسمح بمثل هذا الموقف في وطني، كم أنا مشتاقة لابتناسمة الشباب من ضباط الجوازات بمطار مسقط الدولي، ومزاجهم معي بالهجة المصرية في الدخول والخروج: "وحشتينا يادكتور، برضه رايحة وراجعة من القاهرة غيري شوية من أم الدنيا، كل الجواز أختامه مسقط القاهرة، القاهرة مسقط"، ناجيت ذاتي وبحسرة: "الله يجازيك يا شباب أدبيني غيرت مانينيش غير البهولة". لوح الضابط بيده منادياً زميله لمشاورته في الأمر فتهدت "يا حفيظ" وكنت على وشك أن أفقد أعصابي لولا وصول موظف سفارة سلطنة عمان بطهران... وفي أقل من الثانية كنت في حوض سيطرة السفارة في طريقي إلى الفندق.

لم تسمح عتمة الليل بمتابعة ما وراء نافذة السيارة التي قضيت بها ما يقرب الساعة من الزمن، وبمجرد وصولي إلى فندق "الاستقلال" الذي يعد من أفضل فنادق طهران، سارعت بفق امتعتي وبأخذ حمام ساخن كنت في أمس الحاجة إليه... نزلت إلى بهو الفندق والساعة تقارب الساعة صباحاً، حيث كان في استقبالني الموظف المختص عن المؤتمر مستفسراً وبأدب جم، عن سبب امتناعي عن ركوب السيارة المرسله من قبل المؤتمر لاستقبالي في المطار، بينت له الأمر لم يكن امتناعاً وأن كل ما هناك أن السائق المختص بالمؤتمر كان في استقبالني خارج المطار، بينما موظف السفارة كان لديه تصريح بدخول المطار ومن ثم قام بمقابلةي أولاً.

في طريقي إلى وزارة العلوم بطهران حيث مقر المؤتمر، كانت عقارب الساعة على مشارف الثامنة، لاحظت حركة طبيعية ومكثظة في الشوارع التي تجمع بين النساء والرجال، حركة مزججة باللغفة والسرعة في الانتقال نتيجة لصقيع الطقس، لغت انتباهي انتشار النساء في شوارع العاصمة بلا حرج بين الناهبة إلى العمل والمنظرة للحافلة والعبارة للطريق... لغت انتباهي ارتداؤهن للحجاب بأريحية وملابس محتشمة تتمشي مع أحدث خطوط الموضة وتتسق مع شدة البرودة.

كانت تلك أولى المشاهد (مشهد أول مرة) التي لغت انتباهي وأنعشتني صباحاً، وظلت أتساءل أهذه هي إيران التي تنهم

إعلامياً أنها تعود بالنساء إلى عصر ما قبل الحجري؟! بريئة أنت يا إيران براءة الذئب من دم ابن يعقوب. (مشهد ثاني مرة) وزارة العلوم مكثظة بالنساء والرجال الكل دووب في العمل، بدأ المؤتمر، والجلسات والنقاشات متواصلة لا أحد يفكر في الفصل بين النساء والرجال ولا وقت للتركيز في ذلك. لحظة استرجاع (فلاش باك - Flashback) وأنا في خضم هذا الضجيج، تذكرت فعالية ثقافية شاركت فيها في إحدى الدول العربية، وتصميم مستمتي على الفصل بين النساء والرجال لا يجابرهاهن على الجلوس في الخلف فحسب، بل ويفرض حاجز زجاجي قاتم أشبه في مئانته وسكبه بالحاجز الأسمتي.

(مشهد ثالث مرة) نساء ونخب نسائية إيرانية عالمات بمختلف التخصصات، وعلامات في شتى المجالات لا العادية والبسيطة فحسب، بل القيادة فهن أساتذة جامعات، وعميدات، ورئيسات أقسام، وعضوات في مجلس الشورى، ووزيرات... الخ. (مشهد رابع مرة) مستشارة رئيس الجمهورية امرالله آذ. (مشهد خامس مرة)، (مشهد رئيسي - Master scene) داخل مقر رئاسة الجمهورية ويمعية النخب النسوية العالمية، رئيس الجمهورية الإيرانية الدكتور محمود أحمدي نجاد وكبار رجالات حكومته يهبون بالوقوف واضعين يمني كفوهم على صدورهم، وبحركة احتفالية للرأس للأسفل، وميل قليل للصدر إلى الأمام يعبرون عن تقديرهم واحترامهم وإجلالهم للمرأة، كل ذلك يا عزيزي القارئ، صدق أم لا تصدق، حين صعود المرأة على المنصة لإلقاء كلمتها وأيضاً حين تركها للمنصة عقب انتهائها من الكلمة. لحظة استرجاع (فلاش باك - Flashback) مصحوبة بصوت ناي حزين، تذكرت عشرات المرات وربما مئات المرات اللاتي صدعت فيها أنا وغيري من النساء اللغة العربية قال لي ويكل فخر: "طبعاً إنها لغة أكثر من بلد اسلامي وغير اسلامي لم يقم لنا فيها أحد!!".

(مشهد سادس مرة) جمهورية إيران الإسلامية للغة الرسمية فيها بعد الفارسية هي العربية، لا توجد جامعة واحدة من جامعات إيران وليس بها قسم لتدريس اللغة العربية. حين وجدت الكثير من الإيرانيين يتحدثون العربية الفصحى بطلاقة، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية شخصياً، الذي فوجئت به وبندرة تعرب عن قمة التواضع أنه يحاورني بالعربية مبدئياً إعجابيه بهوء السلطنة وجمالها ومرحباً بي بوصفي ضيفة عمانية، فحين أبيت إعجابي ودهشتي لإجادته اللغة العربية قال لي ويكل فخر: "طبعاً إنها لغة القرآن، ولغة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)".

(مشهد سابع مرة) أصفهان آية في النظافة والجمال بلدة التاريخ والملوك والفن والعمارة والصناعات الحرفية. ينتشر بين رحاب جسورها المرتجلون من الشعراء والمطربين ينشدون قصائد الحب الرومانسية. الحب ذاته رأيتهم متبادلاً بين نظرات وهمسات العشاق في الحدائق وجاريها بين أيديهم المتشابهة.

(مشهد تاسع مرة) إيران... يا دولة الحضارة والإمبراطورية الفارسية، ويا لوحة العلم والفكر والثقافة والفنون، أين رذك على الأكاذيب المزعومة عنك؟ لماذا يبدو صمتك رهيباً؟ أيها الثقة بالذات وبالوهية؟ أم العالم في انتظار مفاجأة ما؟ (مشهد آخر مرة) كل الشكر والامتنان للحكومة الإيرانية وللجهات المعنية بالمؤتمر على كرم الضيافة، وحسن الاستقبال، ودفاء الصحبة.

(النهاية) وصولي مطار مسقط الدولي والابتسامه ذاتها المعتادة من الشباب مع التهليل: "مبروك يا دكتور أنت كبرت وترعرعت في مصر حفرحك، الفرانعة فازوا بكأس أفريقيا في كرة القدم للمرة السابعة" رغم أنني آخر من يتابع هذه الرياضة أو يفهم فيها وأعترف بجهلي في ذلك، فإنه ألف مبروك عليك يا أم الدنيا. ■

\*مستشار الثقافة والعلوم الإنسانية بمجلس البحث العلمي

## لغويات

### التنغيم الصوتي ٤-٢



سالم البلوشي \*

للمتكلم أثر واضح في تحديد معنى الجملة بوضعها في إطارها الصوتي الملائم، ويظهر ذلك الأثر في التنغيم الذي يبدو أثره واضحاً في التفريق بين معاني الجمل كالخبرية والإنشائية، فقد تكون الجملة خبرية في المعنى، وهي تحتوي على أداة استفهام في اللفظ، وقد تكون استفهامية دون أن تحوي أداة استفهام.

والناظر في كتب المعاني يجد شيئاً جديراً بالتقدير، فإن أصحاب هذه المصنفات قد درسوا خروج هذا الأسلوب أو ذلك إلى أساليب أخرى، وإن لم يعزوا ذلك كله أو بعضه إلى التنغيم، والعربية بالإجمال تعتمد على الأداء والترتيب والتنغيم، وفي قابل الكلام سنجد أن ثمة أمثلة لأساليب تخلو من الأدوات، ولكنها في الحقيقة ذات دلالة مفهومة، والفصل في ذلك كله هو التنغيم، وقد يمنح التنغيم التركيب المصدر بالأداة تلوينا مختلفا يجعل الأداة والجملة المركبة معها يعبران عن أكثر من حالة، وبذلك يخرج الأسلوب المعروف إلى أساليب شتى، وفي أحيان كثيرة تكون قرينة التنغيم أعظم أثراً من القرينة اللفظية، أي الأداة، بحيث تجردها والجملة المركبة معها من المعنى الذي تحمل عليه، فثمة جمل كثيرة تشتمل على أداة استفهام، لكنها لا تحمل معنى الاستفهام، من ذلك قوله تعالى: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) ﴿سورة الإنسان/ ١﴾ إذ تبدو الآية بهذا القدر استفهامية - للوهلة الأولى - بناء على القرينة اللفظية، وهي أداة استفهام، إذا نظرنا إليها مكتوبة.

فإذا عرضناها على أسماعنا من أفواه القراء، أو نظرنا إليها في سياق المعنى القرآني لم تكن الجملة استفهامية، والآية الكريمة بصياغتها من أساليب التحقيق والتأكيد، ولذلك جعل أكثر النحاة والمفسرين (هل) بمعنى قد.

وثمة أمثلة لتراكيب تخلو من أداة استفهام، ولكنها في حقيقة الاستعمال تراكيب استفهامية يستقبلها السامع بإدراك واضح، ويتعين الاستفهام في مثل هذه الصياغات بالتنغيم، كما يتعين به التفريق بين الأساليب المختلفة من ذلك قولك: ( أنت موظف ) فإن النظرة الأولى إلى هذه الجملة المكتوبة توهم أنها لا تكون إلا جملة خبرية إثباتية، ولكنها قد تكون بالتنغيم جملة إنشائية استفهامية، وهذا شائع في حديثنا اليومي.

وإذا تأملنا قول أحد الرُجَّاز وهو يقول:

حتى إذا جِنّ الظلامُ واختلط  
جاؤا بمدق هل رأيت الذئب قط؟  
فجملة (هل رأيت الذئب قط) خبرية تقريرية تعني جاؤا بمدق يشبه لون الذئب، وذلك لأن النغمة الصوتية تشير إلى معنى الإخبار، وليس إلى معنى الاستفهام.

وفي قوله تعالى: (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك بتبغتي مرضاة أزواجك) ﴿سورة التحريم/ ١﴾ يمكن أن تكون جملة (تبغتي مرضاة أزواجك) استفهامية، وليس فيها أداة استفهام، وإنما طريقة تلغها تناسب الأنماط التنغيمية للجملة الاستفهامية بدل على أنها استفهامية.

وعلى هذا قد تسقط أداة الاستفهام، ويبقى السياق استفهامياً، كما في قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا: تحبها؟ قلت بهراً  
عدد الرمل والحصى والثراب.

فالتنغيم في (تحبها) استعريض به عن أداة الاستفهام. ومن ذلك قول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - (يا أبا ذر عبرته بأمة؟ أراد أعيرته بأمة؟ ومن ذلك مارواه ابن عباس من أن رجلاً قال: (إن أمي ماتت وعليها صوم شهر فأقضيه) أي: فأقضيه؟ وروي أن الحسن أو الحسين (رضي الله عنهما) أخذ ثمرة الصدقة، فجعلها في فيه، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخرجها من فيه، قال: (ما علمت (...))، أي أما علمت...؟ وقد علق ابن مالك (ت ٦٧٢هـ) في كتابه شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح في ١٤٧ على حذف حرف الاستفهام في هذا الحديث قال: (ومن روى ما علمت فأصله، أما علمت؟ وحذفت مهزة الاستفهام لأن المعنى لا يستقيم بدونها. وإذا ما نظرنا إلى (لولا) الشرطية للاستفهام على سبيل التحضيض، فكيف أدرك النحاة هذا التحضيض، إن الاستفهام فيها لا يتأتى بالجملة المكتوبة، ولكن القرينة الحالية، عن القرينة التنغيمية الدالة عليها، هي التي غيرت معنى (لولا) من الدلالة الشرطية إلى الدالة التحضيضية، وقد يكون للجو الخاص بها ما يمنحها صورة أخرى غير التحضيض الذي هو الحث مع الإزعاج، ففني قوله تعالى: (لولا أخرجتني إلى أجل قريب) ﴿المنافقون/ ١٠﴾ ليس ثمة تحضيض في المعنى، وإنما هو دعاء، بدليل تمام الآية: (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت، فيقول: رب لولا أخرجتني إلى أجل قريب، فأصدق، وأكن من الصالحين) ﴿المنافقون/ ١٠﴾.

وقد يكون لصيغة الأمر دلالات أخرى يؤديها التنغيم تخرج عن هذه الأبواب، أو يتفرع كل باب بسببه فروعا شتى فنحو الفعل: (انهب) مثلاً: قد يكون طلباً محضاً، وقد يكون زجراً وتوبيخاً، وقد يكون رجاءً يقول تمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) إن الجمل العربية تقع في صيغ وموازن تنغيمية، هي هياكل من الأنماط النغمية ذات أشكال محددة، ولكل جملة صيغة تنغيمية خاصة، والصيغة التنغيمية هي منحني نغمي خاص بالجملة، ويعين على الكشف عن معناها النحوي، والتنغيم في الكلام يقوم بوظيفة الترقيم في الكتابة، غير أن التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى.

\* باحث ولغوي

salemabdullah@gmail.com